الضار النافع

الاسم هو الضار النافع ، وهما اسمان من أسماء الله الحسنى . دققوا في كلمة الحُسنى ؛ ولله الأسماء الحُسنى ؛ فالضار من أسماء الله الحُسنى ، والمانع من الأسماء الحسنى ، والقابض من الأسماء الحسنى ، والمُذل من الأسماء الحسنى ، وكُلُّ أسماء الله حُسنى ؛ ولكن قد يبدو للإنسان أحياناً أن الضُّرَّ يؤْلمه ، وهو كالدواء تماماً ؛ طعمه مُر وعاقبته محمودة .

هناك توجيه لبعض العلماء ، وهو أن تبقى هذه الأسماء مزدوجة ، وأن تُدرّس معاً ؛ فلا تقول : الضار وحده ؛ قُل الضار النافع ، والقابض الباسط ، والمُعز المُذل ، والمُعطي المانع ، وهذا لسبب بسيط وهو أنه تعالى يضر لِينفع ، ويذل ليعز ، ويمنع ليعطي ، ويخفض لِيرفع ، ويقبض لِيبسط ، لو كُشف الغطاء لهذا الإنسان الذي ساق الله له من الشدائد ما ساق ـ والله الذي لا إله إلا هو ـ ، لَذاب كما تذوب الشمعة إذا أُشعِل فتيلها ، حُباً في الله عزّ وجل . ولو عُرفت حكمة الشدائد التي يسوقها الله لِعِباده ، لَذاب الإنسان حباً واستحياء من الله عز وجل ، كما تذوب الشمعة إذا أُشعل فتيلها .

لذلك يقول الإمام الربيع بن خثيم : والله لو كُشِف الغطاء ،

ما ازددت يقيناً . وهذا الإيمان وهذا الشعور هو أحد أكبر الأسباب في سعادة الإنسان .

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا فليس لي معدِلٌ عنهم وإن عَدَلُوا
وإن فتَّـوا فـي حبهـم كبـدي باقٍ على عهدهم راضٍ بما فعلوا

شعور الرضا أيها القارىء الكريم لا يوصَف ؛ أي أن ترضى عن الله .

عن بعض السلف : إن الله تعالى إذا قضى في السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه ، وقال أبو الدرداء : ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر ، وقال عمر رضي الله عنه : ماأبالي على أي حال أصبحت وأمسيت من شدة أو رخاء ، وكان الفضيل يقول : إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضي عن الله تعالى .

لا تُصدِّق أن يكون الامتحان في الرخاء ؛ إنما الامتحان في الشِّدّة . ولا يظهر إيمانك إلا في الشِّدّة ، ولا ترقى عند الله إلا في الشِّدّة ، لذلك المؤمن يُوَطِّن نفسه على أن يُمتحَن . وقد سُئل الإمام الشافعي : أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ فقال : لن تُمكن قبل أن تُبتَلى ، قال تعالى :

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾

[آل عمران : ١٧٩]

فأكثر المراجع ترى أن هذه الأسماء المزدوجة ؛ ينبغي أن تذكر معاً ؛ الضار النافع لسبب بسيط ، وهو أنه تعالى يضُر لِيَنفع .

في سورة القلم قِصة أصحاب الجنة ، قال تعالى :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم : ١٧ـ٣٣] .

فأصبحت كالصريم أي تلفت وانتهت . نتيجة ما أصابها من الصقيع ﴿ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴾ ، القصة طويلة ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ ليس هذا بستاننا ، فلما تأكدوا الأمر قالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ ، ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ ، فلضعف إيمانكم بالله بَخِلتم ؛ فلما بَخِلتم عوقِبتم ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ انتهت القِصة ، والآن إلى التعقيب : قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ﴾ ؛ أيْ أنه ؛ أيُّ عذاب أسوقه للعباد ؛ فَمن أجل هذا ، ومن أجل أن أردهم إليّ ، ومن أجل أن أحملهم على الصواب ، ومن أجل أن أحملهم على التوبة ، ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ﴾ ، والمؤمن الصادق يعتقِد اعتقاداً راسخاً أن كُلَّ شِدَّة وراءها شَدَّة إلى الله ، وأن كل مِحنة ، وراءها مِنحة وأن كُلَّ شيء وقع أراده الله ، وأن كل ما أراده الله وقع ، وأن إرادة الله متعلقة بالحِكمة المُطلقة ، وأن حكمته المطلقة متعلِّقة بالخير المطلق . ومعنى الحِكمة المُطلقة ؛ أن الذي وقع لو لم يقع ، لكان الله ملوماً ؛ ولكان عدم وقوع الذي وقع نَقْصاً في حكمة الله عز وجل .

لذلك هناك من يقول : لِكل واقعٍ حكمة ، فطالما أن هذا الشيء

وقع ؛ فَمن ورائه حِكمة ما بعدها حِكمة ، ولو أن الذي أوقعه كان أحمق أو مجرماً ، ولو أن الذي أوقَعَه لم يكن حكيماً ، ولو أن الذي أوقعه كان شريراً ، ولو أن الذي أوقعه كان جاهلاً ؛ لكان الأمر مختلفاً ولكن لِكلِّ واقعٍ حِكمة ، لأنه لا يُمكن أن يقع في كَون الله إلا ما أراده الله ، وإرادته متعلِّقة بالحكمة المطلقة ، هذه الفكرة وحدها ، يُمكن أن تنفِيَ عن الإنسان كل أمراضه النفسية . يعني إذا كان هناك صحة نفسية ففي عالم الإيمان كل السلامة النفسية . علاقتك مع الرحمن الرحيم ، مع الحكيم ، ومع العليم ، ومع العادل ، علاقتك مع ربٍّ كريم ، بيده كل شيء ، ويعلم كل شيء ، لا تخفى عليه خافية .

علماء كُثُر يقولون : « **اعلم أن الجمع بين هذين الاسمين أولى وأبلغ في الوصف بالقدرة على : ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا نافع ولا ضار غيره** » .

لندقق النظر معاً ؛ فمتى يُنافق الإنسان ؟ متى يُرائي ؟ ومتى يخاف ؟ ومتى ينهار ؟ ومتى يَخْنع ؟ ومتى يقبل الضيم ؟ إذا شعر أن إنساناً يمكن أن ينفعه ، أو يمكن أن يضره ، أمّا إذا أيقن أنه لا نافع إلا الله ، ولا ضار إلا الله ، رفع رأسه وقال : لا ، بِملء فمِه ، واعتقد أن الله لن يسلمه ، ولن يتخلى عنه ، وأن كلمة الحق لا تقطع رزقاً ، ولا تقرِّب أجلاً . فكل أسباب القوة والمنعة ، وكل أسباب العزة والجُرأة ، تتأتى بسبب أن تؤمن أنه لا نافع ، ولا ضار ، إلا الله ، ألا يكفيك قوله تعالى :

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر : ٢] .

هذه الآية وحدها تكفي في ملء قلبه يقيناً ونفسه إيماناً ، ألا يكفيك حديث رسول الله الذي روي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ : « **يَا غُلامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ** » . [رواه الترمذي] .

هكذا الإيمان .

يقول علماء اللغة : « **إن الضُّر ضد النفع** » ، واللهُ جل جلاله هو الضار ؛ لكن ينبغي ألاّ يغيب عن ذهنك كيف يكون ذلك ، فمثلاً إن الأب الطبيب الجرّاح يُمسك بالمِبضَع ، ويفتح البطن ، ويخرج الدم ، ويربط الأوعية ، ويأتي إلى هذه الزائدة ـ التي جعلته من شدة الألم يكاد يخرج من جلده ـ ويقطعها ويستأصلها ، ثم يُضَمِّد الجِراح . أب طبيب جراح مُفعم قلبه بالرحمة ، وممتلىء عقله بالعِلم ، أُصيب ابنه بالتهاب الزائدة ، ماذا يفعل معه ؟ يستأصلها ؛ استِئصالها مُؤلم ، فهناك فتح بطنٍ وتخدير ، وبعد انتهاء المخدر هناك آلام ، لكن هذا الأب يفعل كل ذلك لِصالح ابنه . لا يمكن أن نفهم الضر من الله إلا هكذا ، وأيُّ فهمٍ آخر يُعَد كفراً وإلحاداً في أسماء الله عز وجل لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

إنَّ المؤمن مستسلم وصابر لِحكم الله . وحينما يصبر المؤمن لِحكم الله عز وجل فإن الله جل جلاله يتجلّى على قلبه بالسكينة . فالله سبحانه وتعالى يُفقر ؛ وقد يكون الإفقار هو عَيْن العطاء . والله سبحانه وتعالى يُمرض ؛ وقد يكون في المرض الصِّحةُ النفسية التامة . والله سبحانه وتعالى يُخيف ؛ وقد يكون في الخوف الالتجاء إلى الله عز وجل . والله حكيم يعلم كيف يُداوي ، ويعلم أسباب الألم ، ويعلم ما الذي يحمل عبده على التوبة .

أنا أعرف رجلاً مُتَفَلِّتاً تفلتاً كاملاً من منهج الله ، وعقيدتُه فاسدة ، ويستهزىء بالدين ، ولا يُطبق شيئاً من أوامر الله عز وجل . وزوجته كذلك . أصيبت ابنته بِمرض عُضال وخبيث في دَمها ، فقام ولم يقعد ، وأنفق كل ما يملك ، واضُطرَّ إلى بيع بيته ، وأخذها إلى بلاد غربية ليعالجها لأنه متعلّق بها تعلقاً شديداً ، ثم جاءه خاطر ، والأَوْلَى أن نقول إنه إلهام من المَلَك ، أَنْ يا فلان لو أنك تُبت إلى الله أنت وزوجتك ، لشفاها الله ، فهذا الخاطر حمله على أن يتوب ؛ فحَجَّب زوجته ، وبدأ يصلي ، وحضر مجالس العِلم فشفا الله ابنته . وبعد سنوات عِدة ـ هو زميل لي في العمل ـ زارني في مَركز عملي ودعاني لِحضور عَقْد قِران ، فقلت له مُداعِباً : أهي هي ؟ فقال : هي هي ، هي التي مَرِضت وردَّت أباها وأمها إلى الله ، هذا المرض كالضيف ؛ جاء فَحَمل أباها وأُمها على التوبة ، ثم انسحب .

﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ﴾ لا يمكن أن نفهم عذاب الله إلا بهذه الطريقة ، العذاب ضيف ، ولكنه ضيف مؤلم ، يدخل ويخرج وقد حَمَلَ الإنسانَ على التوبة . لكن المصائب أنواع ، فهناك مصيبة قَصم ، وهناك

مصيبة ردْع ، وهناك مصيبة دفْع ، وهناك مصيبة رفع ، وهناك مصيبة كشف . الأنبياء إذا ساق الله لهم المصائب ، فلِكَشف حقائقهم التي تفوَّهوا بها . والمؤمنون إذا ساق الله لهم المصائب ، فَلِدفْعهم إلى بابه ، أو لِرفعهم إلى جنابه . أما الكفار إذا ساق الله لهم المصائب ، فإما قصماً إنهاءً لِحياتهم ، وإما ردْعاً إذا كان فيهم بقية خير ؛ فالقصم والردع للكفار ، والدفع والرفع للمؤمنين ، والكشف للأنبياء ، ولكل مصيبة حِكمة ما بعدها حِكمة .

في بعض الأدعية : إلهي ، أنت الضار توقع الضر والآلام لأهل الشرك والفجار ، وأنت العدل في إضرارك ، وكلهم كالمرضى في حكمك ، فتداويهم حكمتك ، وتوجِد من الضر النفع .

لو دققت النظر في أب أهمل ابنه ، يأكل كما يريد ، وينام إلى أي وقت يريد ، ولا يدرس ولا يذاكر ، ويُصاحب رفقاء السوء ، هذا الابن سيكون في مؤخرة الركب . الأب الشديد الذي حمل ابنه على الدراسة ، وضبط سلوكه ، وقسا عليه ؛ فقد يكون هذا الابن شخصيّة لامعة في المجتمع . هذا الابن عندما رأى نفسه في أعلى مقام ، وذا مكانة اجتماعية ، ويحمل شهادة دكتوراه ، وله بيت وزوجة ، معززٌ ومكرّم ، ألا يدعو لأبيه طوال حياته ؟ ألا يقول : جزى الله عني أبي كل خير ؟ لولا شِدتُه لما كُنت فيما أنا فيه . لذلك أيّ إنسان على الإطلاق ، يُلخص علاقته بالله كلها يوم القيامة بِكلمة : الحمد لله رب العالمين . قال تعالى :

﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠] .

يُروى : أنّ سيدنا العباس كان مقيماً في مكة ، وكان قد أسلم سِراً ، وبَقي عين النبي ﷺ تروي بعض كتب السيرة أن النبي ﷺ أمر أصحابه ألا يقتلوا عمَّه العباس ، ثم إن الحقيقة انكشفت ، فبعضهم ظن أن النبي من باب التعصب ينهى أن يُقْتَلَ عمُّه ؛ لكن النبي ﷺ يعلم أن عمه قد أسلم ، ويعلم أيضاً أنه إذا ذكره كُشف أمرُه ، وإذا لم يُشارك عمه في المعارك كشِف أمرُه .

قال ابن إسحاق : وحدثني العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض أهله عن ابن عباس : أن النبي ﷺ قال لأصحابه يومئذ : إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً ولا حاجة لهم بقتالنا فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله ، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله ، فإنه إنما أخرج مستكرهاً . قال : فقال أبو حذيفة : أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا ونترك العباس ؟! والله! لئن لقيته لألحمنه السيف ـ قال ابن هشام : ويقال لألجمنه السيف ـ قال : فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب : ياأبا حفص ـ قال عمر : والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ بأبي حفص ـ أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف ؟ فقال عمر : يارسول الله دعني فلأضرب عنقه بالسيف فوالله لقد نافق فكان أبو حذيفة يقول : ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة فقتل يوم اليمامة شهيداً .

فالإنسان إذا توهم أن الله يسوق الشدائد تَشَفِّياً فقد تنكب سبيل الإيمان وساء ظنه بالله ؛ فالله سبحانه أسماؤه حُسنى قال تعالى :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

[إبراهيم : ٨]

ولكن يقول الله عز وجل :

﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴾ [النساء : ١٤٧] .

دعا بعضهم فقال : يا رب امنحني عيون التوحيد ، حتى لا أطلب دفع الضر إلا من جنابك .

وبعض الأدعية تقول : اللهم صُن وجوهنا باليسار ـ بالغنى ـ ولا تبذلها بالإقتار ؛ فنسأل شر خلقك ، ونُبتلى بِحمد من أعطى ، وذم من منع ، وأنت من فوقهم ولي العطاء ، وبيدك وحدك خزائن الأرض والسماء ؛ فامنحنا اللهم عيون التوحيد حتى لا نطلب دفع الضر إلا من جنابك ، ولا نقف إلا عند أعتابك ، أنت على كل شيء قدير .

الإنسان عندما يتضعضع أمام إنسان لِيتلافى الضر ، فقد أشرك . وحينما يمتلىء قلبه حباً لِفلان لأن خيراً أصابه منه ، فقد أشرك . والبطولة ألاّ تعتقد أن أحداً في الكون بِإمكانه أن ينفعك أو أن يضرك ؛ الله هو الضار النافع .

النافع لا يقتصر على الدنيا وإنما على الدنيا والآخرة ؛ فالذي يمنح الصحة هو النافع ، والذي يمنحك الغنى والسعادة والحياه والهداية والتقوى هو النافع ، وهو الذي أوصل كل هذه النعم إلى خلقه ، ووصل نِعَمَ الدنيا بِنعَمِ الآخرة ؛ فالنافع يشمل منافع الدنيا ، ومنافع الآخرة . ألم يقل النبي ﷺ : « اللهم! أصلح لي ديني الذي هو عصمة

أمري وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي » [رواه مسلم] ، معنى ذلك أن الدنيا تُكمل الآخرة ، والآخرة تكمل الدنيا . والمؤمن يطلب حسنة الدنيا والآخرة ، ومن أكثر الأدعية التي دعا بها النبي ﷺ :

عَنْ أَنَسٍ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ : « **اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** » . [رواه البخاري ومسلم] .

ما الذي يمنع أن تسأل الله حسنة الدنيا وحسنة الآخرة ؟

وفي بعض الأنوار القدسية في الأدعية : إلهي أنت النافع لِجميع العوالم ، وأنت بالجميع راحم .

والإنسان عندما يستقيم على منهج الله ، يهديه الله سُبُلَ السلام . فسُبحانه لا يُرضيه أن يُعذِّبك . تصوّر حالة أبٍ ، له ابن يحبُّه حباً لا يوصف ، ووجد معه خمساً وعشرين ليرة ، فيقول له : من أين لك هذه ؟ فيقول : أخذتها من رفيقي وهو لا يدري (يعني سرقها) ، هذا الأب العاقل ألا يجد نفسه مضطراً إلى أن يؤدِّب ابنه ؟ أنا والله أعتقد أن الأب الرحيم حينما يؤدب ابنه ، يتألم عشرة أضعاف آلام ابنه ، ومع ذلك فلا بد من إيقاع الضرب فيه ، أو التجربة المؤلمة . فالإنسان الرحيم يرى من الضرورة أن يوقع في الذي يحبه ألَماً رادعاً ، لا أدري مَن مِنَ القراء الكرام ذاق هذه التجربة ، وهو أن يضرب ابنه ويتألم أشد من ألَمِ ابنه لرحمته . فالله عز وجل لا يُرضيه أن يُذِلَّك ، ولا يرضيه أن يُفقِرك ، ولا يرضيه أن يحبِس حرِّيتك ، ولا يُرضيه أن يُمرضك ، وأن تكون في مؤخِّرة الركب . الإذلال ، والإفقار ، وحبْس الحرية ، والخوف ، والهم ، والحزن ؛ هذه لا تُرضي الله عز

وجل ؛ لأن الله « **حيِي كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين** » [رواه أبو داود والترمذي واللفظ له] وفي رواية للحاكم : « **ثم لايضع فيهما خيراً** » .

لكنَّ الله سبحانه وتعالى لحكمته البالغة ، لا بد من أن يسوق لعَبده العاصي بعض الشدائد . مثلاً زارني رجل عَقِب خروجي من المسجد ذات يوم وقال لي بالحرف الواحد : أنا يا أستاذ لقد تربيت عند رجل مُلحد ، وذلك أنه كان يشتغل عنده . فكان يقول له : ليس هناك إله ، وليس هناك آخرة ، وافعل ما تشاء . وبِناءً على كلامه ؛ ما من معصية تَعرفها إلا فعلتها ، عدا القتل فلم أقتل ، أما ما سوى ذلك فقد قارفت يداي كل شيء! والأموال بين يديَّ كثيرة ، واللذائذ وفيرة ، والمباهج متلاحقة ، وأنا منغمس في كل المعاصي والآثام إلى قِمة رأسي ؛ قصة طويلة جداً ولكني أسوقها ملخَّصة للقارىء الكريم ، ثم قال : وفجأة سُحب البِساط من تحت قدميّ ، خُتم المحَل من قبل السلطات ، أودع شريكي في السجن بِتُهمة كبيرة جداً . وانقطع دخْلي فجأةً ، وعليّ ديون كنت أسددها من دخْل المحل ، وكُشِف أمري ، فاضطررت إلى أن أعمل عملاً دون مكانتي بكثير ، كي أُؤمن طعامَ يومِي ، وساق الله لي الأمراض والشدائد ، وقد وصف لي حالته وكأن مطرقة على رأسه وقال أخيراً : والله لا أملك ثمن الدواء ، ولا ثمن الطعام ، وأذلني الله ذُلاً شديداً ، ودخلت المسجد أول مرة بحياتي كي أُصلي ، وتُبت إلى الله ، واصطلحت معه . والله بعدما خرج دمعت عيناي وقلت : يا رب ما أحكمك وما أرحمك ، لو تركت هذا الإنسان مكباً على وجهه إلى نهاية عمره ضائعاً تائهاً ، لاستحق النار ؛ ولكن من رحمتك به أنك سُقت له هذه الشدائد ،

حتى حملْته على التوبة فأنت الرحمن الرحيم سبحانك .

وكلما كان الانحراف أشد كانت الضربة قاسية . فتجد أحياناً إنساناً بنظرة قاسية يرتجع وآخر أدنى بِضربة يرتجِع ، والآخر بالكلام الناصح ، والآخر بضرب العصا ، وهناك من لا ينفع معه إلا لضرب المبرّح ، والآخر بالتعذيب ، فكلما كانت لديه حساسية ورِقَّة كان العقاب أخف ، قال أحدهم : يا رب عصيتك فلم تعاقِبني! فوقع في نفسه أن قد عاقبتك ولم تدرِ ؛ ألم أحرِمك لذة مناجاتي ؟ فهناك من إذا وجد نفسه في صلاته غير خاشع ، يشعر وكأنه عوقب عقاباً أليماً . وهناك من لا يهتز حتى تأتيه المصيبة الكبيرة لعله يتعظ .

أيها الإخوة : يقول بعض العارفين : « **يا إلهي ، أسألك أن تشهدني اسمك النافع ، فلا أطمئن إلى غيرك يا وليي يا واسع** » ، فقد يركن الإنسان إلى الأغنياء والأقوياء ، وقد يركن إلى من يظن أنه ينفعه ، وينسى ربه . أما من كان في قلبه بصيص إيمان فلا يَرْكن إلا إلى الله ، لأنه لا يرى إلا الله عز وجل وحده هو النافع ؛ إلهي أسألك أن تشهدني اسمك النافع ، فلا أركن إلى غيرك . ومن بعض العِقاب الإلهي ، أن يسوق الله لك بعض الخير ، عن طريق بعض عباده ، فَتَركن إليهم ، وتُحبهم وهم مُسَخرون لك فاحذر الزيغ ، وقل : واجعلني نافعاً لِجميع عبادك ، راضياً عنك في جميع مُرادك . إنك على كل شيء قدير .

قال بعض العلماء : « **الضار والنافع : اسمان أو وصفان يدلان على تمام القدرة الإلهية ؛ فلا ضرَّ ولا نفعَ ولا شرَّ ولا خيرَ إلا بإرادة الله** » ، هذا الكلام لو نعقِله حقَّ العقل ، ونصدِّقه حقَّ

التصديق ، لأُزيلت من أنفسنا كُل المتاعب ، وكل الهموم ، ولذلك يقول الله عز وجل :

﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء : ٧٨] .

النفع من الله ، والضر من الله . وها نحن في الأسطر التالية نلج عتبة موضوع جديد من خلال سؤال ملح علينا ، لكن سبب الضر مِمَّن ؟فقد علمنا أن الفاعل هو الله . مثلاً لو أصدر الأستاذ قراراً بِتَرسيب طالب ، فالذي أصدر هذا القرار هو المدرِّس أو المدير ، لكن لماذا رسَّبه ؟ السبب من الطالب . لذلك ينبغي أن تُراعَى الحقيقة في هذا الموضوع ، فيجب أن تنسُب الضر ـ ولو أن الله هو الضار ـ لِنفسك ، ويجب أن تنسب النفع إلى الله عز وجل وحده ، والدليل قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء : ٧٨ـ٨٢] .

قال : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ ﴾ ولم يقل وإذا أمرضني ؛ لأن أصل المرض خروج عن منهج الله ، والآية الكريمة :

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٧٩] .

فالحسنة من الله فِعلاً ، ومن الله تفضلاً . والسيئة من الله فِعلاً ، ومن العبد سبباً . لذلك عُزيت السيئات للإنسان .

والنقطة الدقيقة الدلالة أن كل عمَلٍ منسوب إلى الله ، حتى فاعلية الأشياء منسوبة إلى الله ، فالله تعالى لو لم يشأ للسِّكين أن تقطع لما

قطعت ، لذلك النار التي وُضع بها إبراهيم لم تحرِقه . ويجب أن نعتقد أن فاعلية الأشياء بيد الله ، لذلك فإن علماء التوحيد لخَّصوا هذه الحقيقة بِكلمة : « **عندها لا بها** » ، أيْ الأشياء تفعل فعلتها بِمشيئة الله لا بقوة فيها ، حتى الدواء لا يفعل فِعله حتى يشاء الله ، لكُلِّ داءٍ دواء فإذا أصاب دواء الداء ، بَرَأ بإذن الله ، أجل ، حتى الدواء لا يفعل فِعله إلا بِمشيئة الله . وقس عليه كل الأشياء .

قال بعضهم : الضار ؛ الذي يضر من يشاء من خلقه ، حيث هو خالق الأشياء خيرها وشرها ، نافعها وضارها ، والنافع ؛ هو الذي يوصل النفع إلى من يشاء من خلقه ، حيث هو خالق النفع والضر ، والخير والشر .

يقول الإمام الرازي : إن الضار النافع وصفان : إما أن يُعتبرا في أحوال الدنيا ، أو في أحوال الدين . أما الأول فهو أن الله تعالى مُغنٍ هذا ، ومُفقر ذاك ومعطٍ الصحة لهذا والمرض لذاك . وأما في أحوال الدين فهو يهدي هذا إذا شاء الهداية ، ويُضِل ذاك إذا أصر على الضلال ، تطلب الهدى فَيَهديك ، وتطلب الضلال فَيُضلك .

يقول أحد العلماء : « **إن الضار والنافع ؛ اسمان من أسماء الله تعالى ، وفي معناهما إشارة إلى التوحيد ؛ وهو أنه لا يصيب عبداً ضرٌّ ولا نفع ولا خيرٌ ولا شرٌّ إلا بمشيئة الله . وقضائه وقدرته ؛ فَمن استسلم لِحِكمة الله ، عاش في راحة ، ومن أبى وقع في** كل آفة » ورد في الأثر : « **أنا الله لا إله إلا أنا ، من لم يصبر على بلائي ، ولم يشكر نَعمائي ولم يرض بقضائي ، فَلْيَتخذ رباً سواي** » . وروي « من لم يرضى بقضائي ولم يصبر على بلائي فليلتمس رباً سوائي »

[الطبراني عن أبي هند الداري]

نختم البحث ببعض الآيات المتعلقة بهذا الاسم ، يقول الله عز وجل :

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

[الأعراف : ١٨٨] .

ويقول سبحانه :

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [يونس : ٤٩] .

وفي سورة النحل :

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل : ٥٣] .

وقال تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم : ٣٣] .

هذه الآيات تقرر : أن النافع هو الله ، والضار هو الله ، وأنَّ الله يضر لِينفع ، وأن الله سبحانه وتعالى غني عن تعذيب العِباد ، إلا أنه يسوق لهم من الشدائد ما يحملهم على التوبة .

وبعد ، فآخر ما نتناوله في ختام كل بحث هو : ما حظ العبد من هذا الاسم ؟ ، الله اسمه النافع الضار ، فما حظ المؤمن من هذا الاسم ؟ المؤمن يجب أن يكون نافعاً لعِباد الله ، وينبغي ألا يتماسَّ بالمنحرفين لئلا يصيبه منهم الضُّرُّ ، قال تعالى :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

الأثر الثاني : إن المؤمن حِيال هذا الاسم الكريم ؛ ينبغي ألاّ يرجوَ أحداً ، وألاّ يخشى أحداً ، وأن يكون اعتماده على الله كلياً . ومَنْ عَرَفَ أنَّ الله مولاه ، وقد تفرَّد سبحانه بالإيجاد ، وتوحَّد في الإنعام ، فوَّض أموره إليه ، فعاش في راحة ، والخلق كلهم في راحة ، وبذل النصح لكل أحدٍ ، ولم يجد في قلبه غِشاً ، ولا خِيانةً لِغيره .

ومن الخير للذاكر ؛ أن يجمع بين اسمي الضار والنافع ؛ فإليهما تنتهي كل الصفات ، فهو سبحانه وتعالى المالك للضر والنفع ، ولا ضار ولا نافع سِواه قال تعالى :

﴿ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ [الرعد : ١٦] .

وآخر حظٍّ من هذا الاسم ؛ أن تُفَوِّض أمرك كلَّه إلى الله ، والاستسلامُ لله عز وجل من المشاعر المُسعِدة التي هي ثمرة الإيمان بالله عز وجل .

* * *